إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة العاشرة ـ العدد الأربعون ـ شتاء ١٣٩٩ش/ كانون الأول ٢٠٢٠م
صص ١٥٢ ـ ١٢٩

تجليات الديستوبيا وملامحها فى شعر على كنعان

اياد نيسى*
ناصر زارع (الكاتب المسؤول)**
رسول بلاوى***

الملخص

الديستوبيا أو المدينة الفاسدة أو أدب الواقع المرير ناتجة عن المتغيرات والأحداث الاجتماعية والسياسية السائدة. الشاعر فى الديستوبيا يعتمد على المجتمع أو المدينة، متخذاً إياها الأرضية الممهّدة والعامل الأساسى لظهور العناصر الديستوبية فى البنية الشعرية. تجلَّت الديستوبيا فى أعمال الشاعر على كنعان الشعرية بشكل لافت للانتباه، ونحن بدورنا أيضاً نكشف عن أبعاد خباياه الذهنية والروحية تجاه الديستوبيا من شتى الزوايا، عبر تطبيقها على نماذج من نصوص على كنعان الشعرية، وذلک للكشف عن دلالات هذه الظاهرة الأدبية. وَيعتمد هذا المقال فى دراسته للأدب الديستوبى بأنواعه فى سطوره الشعرية، ومن ثمّ يذكر خصائصه وتأثيره فى نتاجه الشّعرى، حتى نتطلع على خصائص هذه البيئة التى عاشها، وأن نصل وبصورة دقيقة إلى رؤية الأديب حول المدينة الفاسدة. وانطلاقاً من هذا يسعى البحث إلى الوقوف على دور الأحداث الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والَّتى تلعب دوراً مهمّاً على حصول المعانى الجديدة لنصوص على كنعان الشعرية وتنوع معانيها من حيث الأدب الديستوبى، وذلک بمنهج يتصف بطابع الوصفى التحليلى مدعوماً بالبحث المكتبى والاجتماعى. وَلقد توصلنا فى هَذا البحث إلى أن الشاعر سعى جاهداً فى أعماله الشعرية أن يعطينا صورة صادقة عن المدينة الفاسدة، وتأثيرها سلبياً على المجتمع، مُتخذاً إياها وسيلة لِتوعية أبناء مجتمعه وتصحيح المسار، حتى يتمكنوا من بناء المدينة الفاضلة الزاخرة بالحبّ والعدالة.

الكلمات الدليلية: الشعر العربى الحديث، الديستوبيا، الفوضى والمعاناة، على كنعان.

*. طالب دكتوراه فى اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس، بوشهر، إيران
ayadneissi@gmail.com
**. أستاذ مساعد فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس، بوشهر، إيران nzare@pgu.ac.ir
***. أستاذ مشارک فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس، بوشهر، إيران
r.ballawy@gmail.com

تاريخ الاستلام: ١٣٩٩/٤/١٢ش تاريخ القبول: ١٣٩٩/٩/٢٢ش

١- المقدمة

تُعدُّ الديستوبيا من الظواهر البارزة فى الشعر العربى الحديث، بحيث تقع موضع اهتمام العديد من الأدباء فى العالم برمَّته. دراستنا لِرؤية الشاعر على كنعان وتجربته الشعرية تبين لنا أَنَّ العديد من سطوره الشعرية تعجّ بهذه الظاهرة الأَدبية والَّتى ولَّدت لديه نوعاً من الشعور بالغربة والضياع الناتج عن المتغيرات الاجتماعية. الأعمال الأدبية الديستوبية بصفتها ظاهرة حديثة فى الأدب العربى اجتاحت الساحة الأدبية بشكلٍ عام والبلدان العربية بشكلٍ خاص فى العصر الحديث، وذلک نتيجةً لتردى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والأزمات الأمنية الأخيرة التى سادتها.

الشاعر على كنعان يعَدُّ من أبرز أعلام الشعراء فى العصر الحديث، ومن الأدباء السوريين الذين لديه موهبة شعرية وقريحة عالية. رسم الشاعر صورة المدينة الفاسدة بشكل راقى وبناء فى أعماله الشعرية، وذلک لأجل الوصول إلى المدينة الفاضلة المنشودة التى تتحقق فيها حرية أبناء المجتمع وتقدّمه بشكل سريع. ومن هذه الزاوية وجدنا بعض النماذج من الديستوبيا فى أسطره الشعرية والَّتى تعبِّر عن ركَائزه الفكرية حول هذه الظاهرة على الصعيدين الحقيقى والخيالى. يهدف هذا المقال إلى استعراض أهم جوانب ظاهرة الديستوبيا فى أعمال على كنعان الشعرية، ودراسة ميزاتها وتطبيقها على أرض الواقع، وذلک للتعرّف أكثر على هذا اللون من الأدب العربى الذى يعتبر حديثاً فى العالم العربى برمّته، بحيث لم يحظ باهتمام الباحثين كما يجب.

١-١- أسئلة البحث

تجيب هذه الدراسة فى ضوء العناصر الديستوبية عن الأسئلة التالية:

١- كيف تجلَّت أفكار على كنعان الديستوبية فى سطوره الشعرية؟

٢- ما هى العوامل التى أدت إلى ظهور الديستوبيا فى نصوصه الشعرية؟

١-٢- فرضيات البحث

١- يمكننا من خلال المنهج الوصفى التحليلى وأيضاً فى ضوء البحث المكتبى

والاجتماعـى، إيصال صورة موجـزة عن مقومات أفكار على كنعان الديسـتوبية فى سطوره الشعرية، وَكيف يطرح الشاعر هذه الآراء فى إِطار القضايا اليومية الهامة التى تدور فى المجتمع.

٢- يبدو لنا أَنَّ دور الأحداث الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كان أشدّ تأثيراً على ظهور الديستوبيا فى أعمال على كنعان الأدبية.

١-٣- خلفية البحث

إنَّ الأدب العربى لم يعرف الأدب الديسـتوبى إلا حديثاً، ولكن ظاهرة الديسـتوبيا تعتـبر ظاهرة قديمة فى الأدب الغربى. هنالک عدد يسـير من الدراسـات والبحوث عالجت ظاهرة الديستوبيا (المدينة الفاسدة)، ونشير فيما يلى إلى أهمّها:

١- رسالة ماجسـتير تحت عنوان "دراسـة مضامين الأفلام اليوتوبية والديستوبية فى سـينما الخيال العلمى المعاصرة" للطالبة سارا آقابابايان (١٣٩٦) فى جامعة سورة الإيرانية، هذه الدراسة ترصد الأبعاد والمضامين اليوتوبية والديستوبية فى أفلام الخيال العلمى بالسينما الإيرانية الحديثة.

٢- وهناک رسـالة ماجسـتير أخـرى بعنوان "الديسـتوبيا فى السـينما" للطالب علـى ظفـر قهرمانى نجاد (١٣٨٣) فى جامعـة الفنون الإيرانية، وقـد قام هذا البحث باسـتعراض تمظهرات الديسـتوبيا فى الأفلام القصيرة، ويهدف أيضـاً لِتقَصّى أثر هذه الملامح الديستوبية على السينما.

٣- مقالـاً تحت عنوان "الديسـتوبيا فى الرواية العربيـة المعاصرة؛ قراءة فى رواية "أورويـل فى الضاحية الجنوبية" لفـوزى ذبيان" لِفاطمة پرچگانى، المنشـور فى مجلة إضاءات نقدية فى الأدبين العربى والفارسـى بالعدد ٢٩ من عام ٢٠١٨م، وقد تطرّقت الباحثـة فى هذا المقال إلى العناصر الديسـتوبية فى الرواية العربية المعاصرة "أورويل فى الضاحية الجنوبية".

٤- وبحث موسـوم بـ"مِن اليوتوبيا الخيالية إِلى الديسـتوبيا الحقيقية فى السـينما الإيرانية"، بقلم الباحث پيام زين العابدينى وأحمد السـتى، نُشـر فى العدد ١٦ من مجلة

بـاغ نظر فى عام ١٣٩٨ش، وقد عالج الباحث فى هذا المقال أهمّ الأسـباب والقضايا المحورية التى سـاهمت فى ابتعاد السـينما الإيرانية كثيراً عـن اليوتوبيا واتجاهها نحو الديستوبيا.

ولكن الدراسة الوحيدة الَّتى عُرِضت لِشعر على كنعان لم توفِّ موضوع هذا البحث حَقـهُ مِن الدرس، وكانت وقفاتنا عنده قصيرة وعابرة، وهى: مقال تحت عنوان "ظاهرة الاغتراب فى شـعر على كنعان" للطالب اياد نيسـى وَناصر زارع وَرسول بلاوى، وتمَّ نَشر هذا المقال فى مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية فى الجزائر بالعدد ٢١ من عام ٢٠١٩م، وهذا البحث جاءَ لِيسلّط الضوء على المظاهر والملامح الاغترابيَّة فى شعر على كنعان.

١-٤- أهمية البحث

الديسـتوبيا فى شـعر على كنعان بَقيت غيرَ مطروقة وَلم تُعالج بالصورة المطلوبة، إذ لم يتطرَّق إليها الباحثون، بحيث تناولت العديد من الدراسـات ظاهرة الديسـتوبيا فى الأدب العربى، ولكننا فى حدود ما قرأنا وبحثنا عنه، مَع الأَسف لم نجد دراسة أخلصت نفسـها لهذا الجانب المجهول فى شـعر على كنعان. فالوقوف والنظر فى الأشـعار التى نظمهـا علـى كنعان فى هذه الظاهرة يفتـح لنا باباً جديداً للولوج إلـى هذا اللون من الأدب. وَمما لا غبار عليه فإِنَّ هذا البحث يعَدُّ وسـيلة من الوسـائل المعينة للمتطلعين والباحثين عن معرفة ظاهرة الديسـتوبيا فى شعر على كنعان، فقُمنا بدراستها مستمدِّين العون ممَّن علَّم بالقلم.

٢- التمهيد

٢-١- الأدب الديستوبى

لفظة الديسـتوبيا (Dystopia) تعنى الضد من اليوتوبيا، فهى مدينة فاسـدة تسودها الفوضى وترزخ تحت الفقر والجوع والظلم والخراب والقتل والقمع، ومشحونة بالخصال القبيحة والصفات الذميمة وكلّ الطباع السـيئة التى تقع فى المجتمعات البشرية. (578

Pearsall :1999,؛ الحسنى، 2015م: 136)، فالديستوبيا مجتمع تسوده ألوان الفساد وتحرم سكانها العيش فى ظلّ السعادة والكرامة. وَفى هذا الصدد تقول المؤلفة سيما داد بأَنَّ كلمة الديستوبيا هى بمعنى المكان الخبيث، والعمل الديستوبى عادة ما يعكس الأزمات الاجتماعية والسياسية المعاصرة فى المدينة الفاسدة، مصوّراً انعدام سبل السعادة بها وانتشار الحالات السيئة، وذلک كمؤشر واضح للتغيير الاجتماعى أو كجرس إنذار لِلابتعاد الضرورى عن انحطاط الفضائل، وما لها من تأثيرات سلبية على المجتمع البشرى. (داد، ١٣٨٥ش:٢٠)، هذه المتغيرات الاجتماعية والسياسية التى تجرى بالعصر الحالى فى شتى مجالات المجتمعات المدنية مهدَّت الطريق أمام تطور هذا اللون من الأدب. الأدب الديستوبى أو أدب المدينة الفاسدة أو أدب الواقع المرير، هو عبارة عن مجتمع خيالى مخيف، ويأتى فى مقابل الأدب اليوتوبى (Utopia) أى أدب المدينة الفاضلة؛ واليوتوبيا بمعنى المكان الفاضل والزاخر بالسعادة وبمثابة المدينة الفاضلة التى هى أفضل بكثير من المدينة الفاسدة التى يعيش بها الأديب. (Taylor & Francis, 2000: 909-910)، المدينة المثالية هى التى تحقق حلم البشرية للإصلاح الاجتماعى والسياسى. إنَّ تاريخ وجود المدينة الفاضلة يرجع إلى تاريخ الحضارة الإنسانية، وذلک عندما نشأ المجتمع البشرى وسعى الناس جاهدين فيه للحصول على هذه المدينة المثالية. (اصيل، ١٣٨١ش: ١٨ –١٧). لقد كانت الرؤى اليوتوبية أملاً للبشرية منذ زمن بعيد، ويتفق أغلب الباحثين على أَنَّ أفلاطون هو أول من أرسى معالم المدينة الفاضلة فى جمهوريته. (كاپلستون، ١٣٦٢ش: ١٣٤)

«تتنوّع عناصر الديستوبيا فى القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتّى البيئية، كما أنَّها تقدّم صورة مظلمة عن المجتمع الذى يفقد فيه الفرد حرّيته وأمنه وفردانيته وحتّى مشاعره.» (پرچگانى، ٢٠١٨م: ١٣٦)، لذا فإنَّ فكرة الديستوبيا، هى فكرة قديمة حديثة فى آنٍ معاً، حيث إنها تظهر على الساحة الشعرية كلَّما وجدت الشروط المناسبة لوجودها، ثمَّ تغيب كلَّما غابَ المناخ الملائم لها. وهذا ما تؤكّد عليه أيضاً الكاتبة پرچگانى، وتقول فى هذا الحقل بأَنَّ الأدب الديستوبى يستخدم لتصوير قسم من حياة الإنسان والأوضاع المأساوية التى لا ترمى إلى سعادته، فى منطقة يرى

فيها الأديب أرضاً خصبة لعمله الأدبى. (المصدر نفسه: ١٣٧)

٢-٢- نظرة عابرة على حياة الشاعر على كنعان

الشاعر على كنعان من مواليد (١٩٣٦م) فى قرية "الهزة" التابعة لمحافظة حمص السورية. ونشأَ فى أُسرة فقيرة، ثمَّ حفظ فى صباه شطراً مِن القرآن الكريم، كما استظهر عدداً مِن الأَشعار، وراحَ يلقى بعضها أَمام الضيوف فى الأَسمار. وفى عام (١٩٥٣م) شرع ينظم المقطعات مقلداً فُحول الشعر القديم أَو أَعلام الشعر الحديث. ظهرت باكورة شعره عام (١٩٥٩م) فى مجلة الآداب. وهو شاعر مرهف الحس عانى فى صباه مرارة البؤس والحرمان واستشعر الظلم الاجتماعى. درس الأدب الإنجليزى فى جامعة دمشق، وتخرج عام (١٩٦٥م)، وعمل أَيضاً فى الصحافة الثقافية مِن عام (١٩٦٤م) حتى عام (١٩٦٧م)، ثمَّ مراقباً للنصوص فى الإِذاعة. أمضى ثلاث سنوات مدرساً للأدب العربى فى جامعة طوكيو باليابان. عمل فى صحيفتى الثورة والتشرين، رئيساً للقسم الثقافى. له مسرحية شعرية بعنوان "السيل" وتسع مجموعات شعرية منشورة، هى: "دربُ الواحة" و"أنهارٌ من زبد" و"أعراسُ الهنودِ الحمر" و"مرايا لآخر المماليك" و"أسئلة للرياح" و"أطيافٌ من لياليها" و"نخلة اسمها فاطمة" و"برزخ للجنون" و"أبجدية الينابيع". (عايش، ٢٠٠٣م، ج ٤: ٣٠٧)

٣- هيكل البحث

٣-١- تمظهرات الديستوبيا فى شعر على كنعان

نتناول فى هذا القسم من المقال ما تبلور فى شعر على كنعان من مظاهر الديستوبيا وما مرّ بأحداث مريرة، بحيث ابتلعته دوامة الآلام بعد أن قطن فى مجتمع يختلف عن مجتمعه المثالى الذى اعتاد عليه. مرَّ الشاعر بمراحل عصيبة فى حياته، مزَّقته من الداخل وولَّدت لديه نوعاً من الإحساس بالضياع والوحشة والقلق إزاء المستقبل. واضافةً على ذلک فإنَّ الانعزال عن المجتمع الحالى الذى أصاب الشاعر أدى إلى وقوفه منبهراً أمام تحديات الحاضر، لِيدلّ على مدى انعكاسها على نفسية الشاعر. ومن هذا المنطلق

عندمـا نتصفح أعمال على كنعان الشـعرية نجد بعض النماذج مِن مظاهر الديسـتوبيا، فنلمح أنّ الشـاعر فتح أمامنا نافذة للتعبير عن معاناته اليومية وآلامه فى مجتمع جريح واجه الكثير من الأزمات السياسـية والاجتماعيـة والاقتصادية. ومما يجدر بالذكر هو أنَّ حرقة الشـاعر وَلهفته إلى الماضى المشرق والهروب من الحاضر الأليم فى المجتمع، والنظرة التشاؤمية تجاه المدينة الفاسدة حثَّته للنزوع إلى الديستوبيا فى أعماله الأدبية.

يطمح الشـاعر إلى مدينة يسودها الحبّ والتسـامح، والمساواة والعدل بين الناس، زاخرةً بالأمن والأمان. فلو تفحصنا مظاهر الديسـتوبيا فى أعمال على كنعان، لوجدنا أنَّ هنالک محاور عديدة ونماذج شتى منها، والتى تمثل أفكار الشاعر وشخصيته الشعرية، بحيث يسـعى الشاعر أن يعالج عبرها حال مجتمعه الذى أُصيب بالدمار والتغيير السلبى الـذى حصل للإنسـان والبيئة فى الحاضر، مصوّراً خيبته بالرجـوع إلى أيامه الماضية ومعانـاة أبناء مجتمعـه من الأزمات الاجتماعيـة والسياسـية والاقتصادية. لا يرغب الشـاعر فى العيش وسـط مجتمع الفقراء يملأون الطرقات، فهذه الأمور أثَّرت بالشاعر تأثيراً عميقاً فنراه يصوّر حياة الفقراء البائسة، وفى الوقت نفسه نجد أنَّ الشاعر يبحث عن حلول جذرية بغيةَ التغلّب على الأوضاع المتردية فى هذه المدينة الفاسـدة، والتى تتطلب أيضاً من أبناء مجتمعه المغامرة والتضحية بكلِّ غالٍ و نفيسٍ.

نسـتعرض فى هذه الفقرة من المقال أهم محاور الديسـتوبيا فى شـعر على كنعان، ونشرح فيما يلى أيضاً أبرز خصائص الديستوبيا وصفاتها التى يريد الشاعر تحقّقها فى نصوصه الشعرية.

٣-١-١- الفوضى والخراب

تُعتـبر الفوضى والخراب من المصطلحات التى تـدلّ على تغيرات طارئة للمجتمع، والتـى غالباً مـا تنجم عمّا تخلّفه الحـروب والانهيارات الماديـة والمعنوية التى تبتلى بها المجتمعات البشـرية، وقد تكـون الفوضى نتيجة تفرداتٍ سياسـية باتت تنخر فى أعضاء النظام السياسى، وكذلک التخلفات الاجتماعية التى تطغو آثارها على القوانين والتقاليـد والآداب السياسـية والاجتماعيـة، حيث تؤدى إلى التفـكک الاجتماعى

وغياب الثقة بين أبناء الوطن والحكومة من جهة، وبين أبناء المجتمع أنفسهم من جهة أخرى، وفى نهاية المطاف يفقد المجتمع القدرة على تحقيق تكامله، وينتهى إلى العبث. يجب على الأديب أن تكون أعماله الأدبية فى خدمة العقل البشرى وأفكاره، وأن لا يهتم بالشكل الجمالى فحسب. (صحرايى وآخرون، ١٣٩٤: ٢)، الفوضى والصراع مع الواقع المرير فى المدينة الفاسدة يعدّ مِن أهم ركائز ظاهرة الديستوبيا فى شعر على كنعان، والتى تعكس نظرته السلبية تجاه المدينة الفاسدة. يكشف لنا الشاعر على كنعان فى المقبوس التالى عن الجانب البشع والمعتم من شخصية أبناء جنسه ومعاناة الأغلبية الساحقة فى المجتمع، والعلاقة الباهتة بينهم جراء ما أصابهم فى معمعة هذه الصراعات والفوضى، والشعور بانفصام عُرى الإخاء والأُلفة بين أفراد هذه المدينة، ليفسر الشاعر طبيعة واقعه الحالى وما يجرى فى مدينته، مستغرباً من فوضوية هذه الحياة التى يعيشها الناس دون قوانين.

«مغلَّقةٌ كوى بيتى/ فما بى حاجةٌ للنور../ هنيهاتٍ .. وأبحرُ كالصدى عن شاطئ الزمن/ ولا مِن مرفأٍ، لا شىءَ يربط ها هنا سفنى/ ... سيولُ العتمة الصفراء تبلعنى/ وتغرقُ بالسواد المرِّ يومى، بالأسى الضارى/ وتغرقُ بالثلوج غدى/ ولا شمسٌ تحرّرنى.» (كنعان، ٢٠١٠م: ١٣٦)

العبارات والتعابير التى استخدمها على كنعان تمثّل مرآةً جليةً تعكِس الواقع المأساوى لِمدينته. إذ نراه يستلهم بعض التعابير والألفاظ الموحية، مِن مثل: (سيولُ العتمة الصفراء)، و(السواد المرّ) و(الأسى الضارى) و(الثلوج)، للتعبير عن مدى الفوضى والخراب المخَيمينِ على المدينة.

يستمر الشاعر فى طرح الفوضى التى تتخبط فيها المدينة، ليزيل الستار عمّا كان يعانيه المواطنون، مشيراً إلى نظرته السلبية تجاه الأوضاع الراهنة بالمدينة، ومصوّراً انزواءه عن غوغاء الحياة وضوضاء المجتمع انزواءً روحياً، لِيعبِّر الشاعر بهذا الشكل عن الأزمات التى يعانيها "الآخر" أى أبناء جلدته فى المدينة الفاسدة من خلال "الأنا" أى الشاعر نفسه داخل النسيج الشعرى. إنَّ الشاعر على كنعان يتألم نفسياً إزاء العيش فى هذه المدينة الفاسدة التى هى مملوءة بالفوضى والظلم، وتتداخل لديه انفعالات

القلق، والاضْطِرَاب، والإحباط، والحيرة، وشدة التوق والحنين إلى الأهل والأحبة، وهى أحاسيس تبدو متداخلة ومعقدة، بحيث تسلب منه حالة الاستقرار والسكينة النفسية، وهذا ما نلحظهُ فى الأسطر الشعرية التالية:

«وجعٌ فى لُبِّ كُمثرى دمى/ وشظايا من زجاجٍ فى جفونى/ بومةٌ تنقر فى رأسى،/ خفافيشُ تنوشُ القلبَ،/ غيمٌ يخطف الروحَ/ إلى تيهِ الظنونِ/ وقطيعٌ من ذئابِ الليلِ/ ينقضُّ على واحةِ أحلامى/ ويغتالُ بحيرات سكونى.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٥٧٢-٥٧٣)

وقد وظَّفَ الشاعر (البومة)، و(الخفافيش) و(الذئاب) رموزاً لِلشؤم، والخراب والغدر، والتى أسدلت ستورها على المدينة، مشيراً بها إلى جوانب من التصرفّات والأعمال العدوانية التى حرمت الراحة على أهل المدينة.

فهذا الشاهد الآتى يوحى لنا أنَّ الشاعر كان جريئاً جداً فى سطوره الشعرية، إذ بات واضحاً بلا غموض، التهميش والعنف الشديد الذى يواجهه أبناء مجتمعه. رسم لنا الشاعر رسماً اتَّسم بالوضوح والعمق لأبعاد احتدام صراع شعبه الدامى والعويص مع الواقع الحاضر. السكان الذين يعانون الويلات بعدما كانوا ينعمون بعيشة رغدة وهنيئة وآمنة تسودها المودة والاحترام المتبادل.

«ويزحفُ النهارُ فى تثاؤبٍ بليد/ على أُناسٍ من رخامٍ/ يرقبون بعثَك المجيد/ سماؤهم حالت إلى دخان/ وأرضُهم رماد.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٧٠)

عبّر الشاعر على كنعان فى أصدق صورة عن تشوّق أبناء شعبه إلى بناء عالم نموذجى، وذلك لأنَّ هذه الساحة الدامية للتحولات فى المجتمع أفقدت الرغبة فى الحياة حتى عند أبناء جنسه وتشعرهم بضعفهم وانسحاقهم وعجزهم، كما تجبرهم على أن يعيشوا واقعاً مؤلماً تحت وطأة هذا الظلم المتطاول عليهم والذى يستحيل عليهم الاندماج فيه. فعلى هذا يستخدم الشاعر لفظتين هما: (الدخان) و(الرماد)، لِيعبِّر بهما عن التداعيات الخطيرة التى ستعقب الاستسلامَ أمام هذا الوضع المتردى المخيف، والذى لن يجلب لهم سوى الفوضى والخراب.

ومن الجدير بالذكر أنَّ سطور على كنعان الشعرية التالية أيضاً عُنيت فى معظمها بتصوير أبعاد حياته الحالية فى الاغتراب وواقع أجواء مجتمعه وما آلت إليه أوضاع

الناس المتردية. يصوّر لنا الشـاعر شدة الظلم والفوضى فى مجتمعه بأنَّه أشدّ مرارة من المـوت، بحيث تظهر بين الحين والآخر زفرات الشـاعر وهو يشـكو ويتذمر عجزه من التكيـف مع البيئة الاجتماعية، مشـيراً إلى عدم وجود الصـلات العاطفية بين الأفراد ومعاناة أبناء جلدته من الملمات إثر الفسـاد الذى انتاب المجتمع. ويعبّر الشـاعر عن هذه الفوضى بقوله منشداً:

«بلا جذرٍ، بلا ثمرٍ، تغوصُ عرائشـى فـى تربةِ الزمنِ/ وألفُ غمامـةٍ موبوءةٍ أدهى من الكفنِ/ فيا لهفى ../ أأنسـى كم تقاسـى قريتى السمحاءُ من شظفٍ/ وكم قاست من المحنِ؟!/ أأنساها؟» (المصدر نفسه: ٢٩-٢٨)

حينما نمعن النظر فيما يلى نجد أنَّ الشـاعر تناول فى هذه الشـواهد شـتى مناحى واقعـه الاجتماعى المؤلم والمضطرب سياسـياً وتحولاته العنيفة، من دون أن يتحاشـى جوهر معاناته والظلم والتعسـف الاجتماعى الذى انتاب المدينة، وجاء أيضاً لنا بصوَّر عديدة من معاناة شـعبه ومقاومته وانكسـاره وخيبته فى هذه المدينة الكئيبة. ومن هذا المنطلق أدت هذه الأحداث برمَّتها إلى هذا الحاضر المأسـاوى وشيوع الفوضى والقمع والعنف بصورة سافرة، فيقول:

«موحشٌ ليلُكم المحرومُ من سـحرِ المدينة/ لا أرى فيه سـوى حفنةٍ أشباحٍ حزينة/ ورمـالٍ ونباحٍ مختنـق/ وصبايا كالرخامِ المحترق/ وبيوتٍ مـن عِصى وخِرَق!» (كنعان، ٢٠١٠م: ٦٢-٦١)

مرّ الشاعر بأقسى ظروف الحياة وتجلت أصداء تمرده على الواقع الحالى فى المقبوس الشـعرى التالى، وذلك للتعبير عـن الفوضى والعاهات الكثيرة والرسـوم والعادات الباليـة التى انتابت هذه المدينة الفاسـدة. اضافةً على ذلك، فإنَّ هذا النص الشـعرى يحمل بين طياته نقداً سياسـياً اجتماعياً حاداً للواقع المرير فى مجتمع يسـوده الفوضى. وَتقول صاحبة كتاب "المدينة الفاضلة عبر التاريخ" بأَنَّ أحد أهم الأسـباب التى تؤدى للوصول إلى المدينة المثالية والفاضلة هو التخلص من الأشخاص الفاسدين، والمحتالين، والسكارى، واللصوص، والمجرمين الظالمين، والمستعمرين، والبلهاء والمجانين. (برنيرى، ١٩٩٧م: ٣٦٦)، والجدير بالذكر أن الشـاعر على كنعان يحاول أيضاً تخلص أبناء جنسه

من هذا الحاضر المرير الذى يعيشونه، ولكنَّه فى الوقت نفسه يعلم أن مساعيه لن تعود عليه بشىء، وأنَّ أمانيه لبناء مجتمع نموذجى ليست سوى أصداء عميقة من شعوره بالغربة بين أبناء المجتمع، فأنكرهم وعدَّهم أمواتاً. ومما يجدر بالذكر أنَّ الشاعر صوَّر النظم الاجتماعية السائدة والكائنة فى عقول أبناء وطنه بالصخرة الصماء التى تربض على عقولهم، وتحول بينهم وبين الحرية والانفتاح الفكرى، بحيث حولت حياتهم إلى جحيم لا يطاق:

«قبيلةٌ مثخنةٌ بدائها الخفى/ ريح السموم حوَّلت واحاتِها/ إلى ملاءٍ وتكايا وحصون/ ... وأهلُها داخوا مع العصرِ الذى/ تحكمُه طاحون/ يلهو بهم تهافتُ الموتى/ ... فلست تدرى أيهم ميتٌ/ وأى حى؟/ قبيلةٌ تبحثُ عن خلاصها ../ لكنها تناستِ الفعلَ الذى/ يحوِّل الزيتَ إلى ضياء/ فلم تجد فى رأسها الصخرى/ من بارقٍ ترجوه/ إلا سحبَ الأفيون!» (كنعان، ٢٠١٠م: ٤٠٨-٤٠٧)

الأحداث التى وردت فى أعمال على كنعان الشعرية تحمل بين طياتها رسالة اجتماعية سياسية، والهدف من كلّ هذه الأمور هو بناء مجتمع مثالى، وذلك ليعيش سكان المدينة فى نعيم، بعيدين كلّ البعد عن الفوضى والعنف. يأمل الشاعر التخلص من هذه الفوضى عن طريق عثوره على صديقٍ يقف معه جنباً إلى جنب فى هذه المحنة، وأن يتحلى بخالص الإحساس ورقّة القلب وفيضان الشعور. عَبَّرَ الشاعر عن هذا الصديق الوفى بالـ(عينين) فى الشطر الأول من هذا النص الشعرى. ولكن فى الوقت نفسه فإنَّ الشاعر من خلال إضفاء صبغة الحزن واليأس على كلماته، أشارَ إلى عدم تأقلمه مع هذه البيئة الفوضوية وأنّ معظم الناس فى مجتمعه يفقدون الصلاحية للصداقة والإخاء، ونوّه الشاعر أيضاً إلى هذا الموضوع من خلال وصف هؤلاء الناس بالأشخاص الذين يفقدون حاسة البصر، بحيث لا يقدرون على رؤية الحقيقة، فيقول:

«عشتُ دهراً وأنا أبحث عن عينينِ/ أحكى لهما بعضَ شجونِ الروحِ/ لكنَّ الملايينَ هنا دون عيون!» (المصدر نفسه: ٥٢٢)

تكون المساواة حقاً من حقوق الإنسان وإحدى أَهم الشروط التى تؤدى إلى نشأة المدينة المثالية، ولكن نشاهد فى الشواهد التالية حرمان الشاعر بشكلٍ خاص والشعب

بشكلٍ عام منها، وتنعدم فى هذه المدينة الفاسدة حقوق الإنسان بصورة جذرية. وصف الشاعر رؤيته للظلم والفوضى فى مجتمعه الذى لا توجد فيه قواعد قانونية عادلة، بحيث حرمه من أبسط حقوقه، حقّه فى الحب والتمتع بالحياة الكريمة، مما جعل الشاعر على أن يتخذ موقفاً صارماً من هذه الأَوضاع المتردية فى المجتمع، وَالتى حدَّت من حرِّيته. ومن هذا المنطلق يشبِّه الشاعر ضياعه وحرمانه من حقوقه فى هذه المدينة الفوضوية بما تعانيه اللغة العربية من ازدراء وتهميش وانهيار فى بلاد الغربة، ليصف لنا الشاعر عبر هذه السطور الشعرية أوضاع مجتمعه الذى هو مجتمع ديستوبى بامتياز.

«وإليكم أشلاء جثتى، يا أصحاب/ أتركها عاريةً لتستروها قبل أن تتفسَّخ/ مثلما تفسَّخت أمجديةُ بنى قحطان.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٦٩٢)

يعكس لنا الشاعر على كنعان أيضاً فيما يلى حياة الناس المتردية والمتأزمة، والتى تسودها الفوضى. يرى الشاعر بأَنَّ الحل الوحيد لمقابلة هذا الظلم والفوضى هو الوقوف أمامه وجهاً لوجه، لأنَّ الشاعر لا يستطيع أن يتحمل أى نوع من الفوضى والصراعات فى مجتمعه. ومما يسترعى الانتباه هو أنَّ الشاعر أمسك بمفصل حيوى من الصراع الاجتماعى والسياسى فى مجتمعه، والذى لعب دوراً بارزاً ومحورياً فى هذا الصدد، ولم يقف الشاعر مكتوف الأيدى، فراح الشاعر يدعو أبناء شعبه إلى الإقدام والانتفاضة والانخراط فى جبهات القتال دفاعاً عن قيمهم الإنسانية السامية. ليس أمام الشعب سوى خيارين، إما أن يثور بوجه الساسة والحكّام الظالمين ويحطّم القيود ويفوز بالحرية وكرامة العيش، وإما أن يظلّ مقيداً بالقيود مسلوب الإرادة صاغِراً:

«صار السكوت قرص سم فى العجين/ صار السكوت دمَّلاً محتقناً بالوحل والسخام/ ... صار السكوت جيفة/ تتنقل وجه الأرض بالديدان/ ... يا مستسلماً للقمل والذباب والغبار/ يا خارجياً مثقلاً بالخوف والسكوت والهوان/ إن شئت أن يبقى/ فى دمك الباقى على الحقب/ شيءٌ من الإنسان/ فلتشرع اليدين واللسان/ كالفأس .. أو كالنار/ فى عالمٍ يئن من فداحة الظلام/ والديدان.» (المصدر نفسه: ٢٧١-٢٧٠)

وإذا تتبّعنا الفقرة السابقة وأمعنّا النظر فيها، يتبين لنا أنَّ الشاعر يشكو تنكّر الحاضر للمعايير الإنسانية والأخلاقية بحيث يعيش الشعب فى أسوأ ظروف ممكنة. ويجب ألّا

ننسى بأنَّ الشاعر طرح قضايا تتطلّب جرأة كبيرة، واللافت للنظر أنَّ الشاعر صوّر (الديدان)، و(القمل) و(الذباب) رموزاً لِلذُّل والهوان، لِتوعية المواطنين وترغيبهم على القيام ضدّ الوضع السائد، بما يحمل من بطش واضطهاد، وخراب. داعياً مختلف أطياف الشعب إلى رفض الظلم، منددا بما يحدث من أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية فى مدينته.

يرسم لنا الشاعر على كنعان فى الشاهد التالى صورة واضحة عن الأزمات والمحن والمجاعات التى مرَّ بها سكان مدينته المهمَّشين ليظهر واقعهم المرير، وتدنى مستوى الخدمات وحرمان الشعب من أبسط حقوقه واهماله اجتماعياً ومعيشياً.

«ومن جوف أحجية العسف والقهر والجوع/ أصرخ .. أصرخ .. أصرخ ../ حتى تجفَّ عروقُ الهواء/ وتختنقَ الأرضُ غرقى برائحة الكلمات القتيلة:/ اتركوا لى بلادى/ اتركوا لى مدينةَ حبى/ واتركوا أحرفَ اسمى، ملامحَ وجهى/ ... اتركوا لى هواء نظيفاً من الرعب، ريان بالعافية/ لأحيا كباقى البشر/ لست وحشاً ../ ولا جملاً لبداوةِ هذا الزمان/ وأنا لست برميلَ زيتٍ ../ ولا بائعاً فى المزاد/ كرهتُ الحروبَ التى لا تصونُ البيتَ/ ولا تستردُّ الأمان/ ولكنْ تزيد الضوارى وسائلَ عنفٍ ونهبٍ/ والمساكينَ بؤساً وطولَ هوان.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٣٠١-٣٠٠)

ظلّ الشاعر مقهوراً من مأساوية الحاضر، وَجوّ هذه المدينة الفاسدة الذى يعتمد على التخويف والترهيب راجياً التخلص من هذه الاعتداءات والصراعات والفوضى والآلام التى لازمت حياته وأملأت كيان الشاعر بالكآبة والشعور بالضياع. الفقر بالحقيقة هو نتيجة لفلتان الوضع الأمنى والمعيشى فى المجتمع. الشاعر يدعو الناسَ الأبرياء بشكلٍ عام وأبناء شعبه المضطهد بشكلٍ خاص، للثورة والنضال حتى تتم إزاحة كل مظاهر الفوضى والخراب فى هذه المدينة. يصفُ لنا الشاعر على كنعان فى المقبوس المنصرم مجتمعاً فوضوياً أنهكته الحروب، بحيث أعطانا الشاعر صورة صادقة عن أبناء شعبه الفقراء والمهمَّشين، والانحطاط الأخلاقى وعدم الاستقرار وارتفاع معدلات العنف. يطالب الشاعرُ الجناةَ والمجرمين بعيشة ناعمة مرهفة، لأنّه إنسان والإنسان فى مجتمعه يجب أن لا يقل كرامةً وشأناً من باقى البشر. يكشف الشاعر عما فعلت الحروب بالناس

الأبرياء فى إشـاعة المثل الذميمة، وهتک الحرمات والنواميس، لذا يصرخ بوجه أبناء مجتمعه متخذاً هذا الواقع القمعى والفوضوى وأجواء التشـرذم السياسـى فى المجتمع ذريعة لإيقاظ الشـعب عن نومهم الطويل وتعرفهم على حقوقهم الضائعة، وذلک ليسود السلام والأمن والطمأنينة بينهم.

٣-١-٢- صورة الفقر

الديسـتوبيا لها مكانـة مفصلية فى أعمال على كنعان الأدبية، وتلعب دوراً رئيسـاً فى شـعره. شيوع الفقر فى المدينة يعدّ من أهمّ عناصر ديستوبيا الحاضرة وبشكل فعال وكثيف فى نصوصه الشـعرية، وذلک لأنَّهُ فى الواقع وليد التمييز الطبقى وتفكک البنى الاجتماعية والفسـاد السياسـى الموجود فى هذه المدينة الفاسدة. انتفض الشاعر على واقع مجتمعه المأسـاوى والبؤس الموجود فيـه، لأنَّهُ يأبى الحياة الذليلة والحرمان الذى يعيشـه شريحة واسـعة مهمشّـة من أبناء جلدته. وبناء على ذلک استوت عند الشاعر الحيـاة والموت، والفـرح والترح فى بلاد الاغتراب، وهذا الأمر يشـاهد فى المقبوس الشعرى الآتى، عندما يقول منشداً:

«لا خوفَ بعد اليوم يا زمانَنا الأجرب/ لا خوفَ من جوعٍ ولا فقرٍ ولا مرض/ فأمنا الحنونُ أمريكا/ ودون أى مِنَّةٍ ولا غرض/ تسـّد ما نحتاجه بالعملةِ الصعبة/ وإن يكن معتصراً/ من دمنا وغدنا الأصعب.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٤٢٨)

نشـاهد فى النص الشعرى السـالف صورة واضحة لمساعى الشاعر بغية نجدة أبناء جنسـه الجياع، وذلک للحصول على ما يسـدّ رمقهم، حتـى إذا كان ذلک يؤدى إلى موته. اسـتعمل الشاعر بوادر الأمل من خلال خطابه الجرىء للزمن المنحط الذى يمثل رمزاً للأوضاع المتدهورة فى مدينته الفاسدة، وأيضاً تحديه للفقر والحرمان داعياً الطبقة السفلى فى بلاده عدم الاستسلام أمام هذه الأزمات الاقتصادية الصعبة، مُثلجاً بكلامه صدرهم.

لقد خاضت غالبية نصوص على كنعان الشـعرية فى تفاصيل ما يجرى على مجتمعه من أحداث سياسـية واجتماعية واقتصادية، وما حلَّ بأبناء وطنه من الضعف، والونى،

والفتور والويلات. يصوّر الشـاعر فيما يلى أبناء مجتمعه المهمّشـين الذين يعانون يومياً من مشـاكل معيشية بسـبب ضنک العيش وواقعهم المأسـاوى الأليم والخطير الذى لم يسـتطيعوا التخلص منه، مشـيراً إلى أدقّ التفاصيل عن بؤس حياة أبناء شعبه فى هذه المدينة الفاسدة. ويقول الشاعر فى هذا المضمار:

«وشـفافهم زرقٌ مشـققةٌ كبالية النعـال/ وعيونهم – غرثى كأَفـراخ الدجاج/ بين المزابل والغلال–/ فوق الرصيف وعبر أبواب الزجاج/ طولَ النهار ../ مدَّ النهارِ وليس من قوتٍ/ ولا داعٍ، ولا حتى ظلال!» (كنعان، ٢٠١٠م: ٨٤)

شاهدنا فيما سبق بأنَّ الشاعر يصرخ لجوع أبناء جنسه وحياتهم المليئة بالفقر والعوز، ويرسـم لنا صورة شـاملة وجلية للوضع الحاضر، واصفاً تراكمات الحقد ومضاعفات العنف الذى رسخ فى كيان المجتمع.

وكما أشـار الشـاعر على كنعان إلى مدى الأزمة الاقتصادية التى يعيشـها سكان مجتمعـه جراء الأوضـاع الراهنة، مُحذراً من الفارق الطبقـى ومن الظروف الاجتماعية القاسـية التى جرّعت أبناء مجتمعه الغصـص والمرارات، والعجز المالى الذى أصيبوا به وأذاقَ شعبه المحن وأحلّت به الملمات والمصائب. وينشد فى الشاهد التالى قائلاً:

«فخشـيتُ أن الأرض قد تتزلزلُ/ أو أنّ سـقف بلادنا يتفتـتُ!/ أُمٌّ تخلَّت عن بنيها الجائعين/ إذ لم تجد فى بيتها ما تأكلُ/ وأَبٌ تقوَّس ظهره تحت السنين/ كالهيكل العظمى، روح يحتويهـا هيكلُ/ وصبية سمراء .. يجهش قلبها القلق البرىء/ كحمامة زغباء تنبش فى جيوب القطب/ عن عشٍّ دفىء.» (المصدر نفسه: ٨٥)

الشـاعر يواجه الموت اليومى لأبناء جلدته فى النص الشـعرى السـابق، حيث لا يجدون ما يسدّ به رمقهم، الأمر الذى أدّى إلى ضيق صدره من هذه الهموم الاجتماعية فى مجتمعه. نخر الفقر فى بنية المجتمع وخرَّبه تخريباً داخلياً، لينتهى الأمر بسقوط الشعب فى دوامة الاضطهاد والعنف.

فى النص الشـعرى التالى يطرح الشاعر على كنعان أيضاً مشكلة العجز المالى فى هذه المدينة الفاسدة، ومرارة الواقع وأعباء ضنک العيش والفقر المدقع الذى تحمله أبناء شعبه، وعمق الكآبة التى يعيشون فيها جراء إنفاق الدولة للأموال وذلک لِشنّ الحروب

المتناوبة والتى كان يمكن استثمارها على إطعام الفقراء. ولكن فى نفس الوقت لم يتراجع الشاعر قيد أنملة عن مواصلة طريقه فى الدفاع عن بلاده، فالشاعر على كنعان لم يقنط من بزوغ فجر جديد يضيء لهم الحياة، مستنكراً ما يعانيه مجتمعه من حروب أنهكت كاهل هؤلاء الناس، بحيث تستنزف قدراتهم وكلّ عناصر القوة فيهم.

«معذرةً إن كانت كلماتى/ كجذوع شجيرات هرمة/ فى عصرٍ يرفض أكْلَ الخبز البايت/ أرضى لم تنبت من سنوات/ غير الصخر/ والمطر الأخضر صار رصاصاً/ ماذا لو أصنع من هذا الصخر/ فؤوساً وحرابا؟!» (كنعان، ٢٠١٠م: ٢٢١)

أشار الشاعر أيضاً فى هذا الشاهد الشعرى إلى استعداده للكفاح والنضال التحررى، وأن يضحى بالغالى والنفيس لأجل تحرير أرض وطنه، الذى محبّته نُقشت فى قرارة نفسه وَشدَّ إليه نياط قلبه، من براثن الكبت والبطش والأعمال التعسفية.

فى الحقيقة هذه الشواهد بمثابة جرس إنذار مدو يسعى لتوعية المجتمع، بحيث ألقى الشاعر على كنعان ضوءاً على الشريحة الكبيرة من أبناء مجتمعه الذين يعيشون فى الكبت والفقر العارم، وانطلاقاً من هذه الأسطر الشعرية عبّر عن مدى تردى الأوضاع المعيشية فى مدينته الفاسدة.

٣-١-٣- شيوع الفساد والخصال الذميمة

يستقى الشاعر على كنعان معظم مادّته الشعرية من واقع حياته المرير فى بلاد الغربة، ليعطينا صورة تفصيلية عن ذاته الإنسانية. نتناول هنا نمطاً آخر من الديستوبيا الذى أخذ من أسطر على كنعان الشعرية ميداناً واسعاً. يحاول الشاعر أن يتعاطى مع المتغيرات الاجتماعية التى رافقت مجتمعه الديستوبى فى الغربة، ولكن دون جدوى. كما أسلفنا قد شغل حبّ الوطن حيزاً واسعاً فى شعر الشاعر، بحيث يعدّ على كنعان مسقط رأسه مصدراً للنقاء والطهر، وفى المقابل يتضجر الشاعر من حاضره المأساوى، مشيراً إلى انعدام سبل السعادة أمامه فى هذه المدينة الفاسدة، بحيث يحتضن ذكرياته الجميلة ليتسلى بذلك نفسه ويطيب خاطره.

أثَّرت كلّ هذه الأحداث المريرة على روح الشاعر اللطيفة والحساسة، بحيث صرَّحَ

الشاعر بموت روح التآلف والرحمة والشفقة والمحبَّة بين الناس فى المجتمع. يعتبر الشاعر أنَّ النـاس فى هذه المدينة لا يطابقونه قولاً وفعلـاً، وذلک بما فيهم من البطش والنفاق والغـشّ، ومن هذا المنطلق حاول الشـاعر إصلاح مجتمعه مـن الانغماس فى الأعمال الشـنيعة وممارسـة كلّ الموبقات التى تجتاحه، ساعياً لبناء عالم نموذجى خالٍ من الرياء الظلم والخشونة.

«الياسمين فى دمشق يرفض الرياء/ الياسمين فى دمشق .. ما له وجهان/ فعندما يحب ../ يطل من أسـيجة الدور بلا وجل/ وينشـر الأَريج/ على ضيوف الشـارع المحروم.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٢٥١)

يسـعى الشـاعر جاهداً فى النص الشـعرى المنصرم بأن يعطينا صورة واضحة عن القيم الإنسـانية السامية من أجل ترسـيخها فى حياة أبناء مجتمعه اليومية، لأَنَّ روحه اللطيفة والرقيقة تريد لكلّ الناس على هذه الكرة الأرضية حياة سـعيدة يغمرها الحب والألفة.

يسـتقبل الشـاعر الواقع الكالح بوجه عبوس وكريه، متنفساً الصعداء ويتضجر من شـيوع الفسـاد والحالة المأسـاوية فى مجتمعه. وبناء على ذلک يصف الشاعر أمنياته الضائعة التى لا يمكن لها أن تتحقق فى هذه البيئة المتشرذمة اجتماعياً، ويسترجع الأيام التى اندرجت فى الزمن الماضى، بحيث طوتها الأيام المظلمة وتبدّدت أحلامه. فنشاهد ذلک فى المقبوس الشـعرى التالى عندما يشـير الشـاعر وبصورة مباشرة إلى الفساد الموجود فى مجتمعه، والذى يؤدى بالنهاية إلى هلاكه حزناً وأساً، ويتحدث عن إحساسه الحـاد بحركة الزمن القاسـى التى سـتمضى به كما مضت بذكرياتـه الحلوة وأصدقائه وخلّانه السـابقين، وتنتهى به إلى الموت والفناء، ليمزج الشـاعر على كنعان بذلک بين ذكرياته الجميلة وهلعه من مجتمع يتباهى بالفساد، فينشد فى هذا المجال قائلاً:

«دار أمى وأبى يغمرها النسـيانُ/ فى بادية الشيحِ/ ويطويها زمانٌ يتباهى بالفساد/ كيف تحتالُ على الموتِ/ وتغشانى؟» (كنعان، ٢٠١٠م: ٦١٩)

المقطع التالى يرسـم لنا صورة مفصلة عن حالة المدينة الفاسدة التى يعيشها الشاعر فى اللحظة الراهنة. لم يسـتطع الشـاعر أن يتلاءم مع هذه البيئة الملوثة التى تعجّ شتى

أنواع مظاهر الفساد والدنس بها، والمشحونة بالحقد والضغينة والكراهية، وتسيطر على مجتمعه قوى النفاق، والتخلف واللاإرادة، مما شـكّلت فى ذهن الشـاعر صورة مشوشة أدركها من العيش فى الغربة. ومما يجدر بالذكر أنَّ الشـاعر يرى المجتمعَ قد جاوز الحدّ فـى ذلّته وتحمّله للإمتهان، حتى يصل الأمر بالشـاعر إلى أن يرى كلَّ شـىء فى هذه المدينة لا ينفع أن يكون سـليماً سـوى حليب الأُمهات. فهذه الأحداث المريرة تؤجج الآلام والأحـزان فى قلب الشـاعر بما فيها من مظاهر ديسـتوبية، وذلک عندما يقول منشداً:

«هات حدِّث عن فسـاد الملح/ كُلُّ شـىءٍ فاسـد إلا حليبَ الأُمَّهات/ ألا ترى كم يعشقون العلبَ المهرَّبة!/ فى جوٍّ سرطانى موبوء.» (المصدر نفسه: ٧٢٣)

النص الشـعرى المسبق يوحى بأنَّ طرح الهواجس التى كانت ترواد أفكار الشاعر على كنعان بصـورة يومية حول المجتمع وأحوال المدينة أصبحت موضع اهتمامه. ومن الملاحظ فيما يلى أنَّ الشـاعر قنط من الحياة بين جدران هذه المدينة الفاسـدة، والتى لم يتمكـن من التأقلـم معها، مما أدى هذا الأمـر إلى ازدياد نفور الشـاعر من مدينته وإحساسه بالكراهية إزاءها.

«هاربـاً من دبقِ العيش البهيمى/ ومن قىء التكايا/ وخفافيش القبور/ حاملاً ملء حنين الروح/ أشـجان المنافى/ والتياعات العصور/ مدنفاً ألقى بأوجاعى وأحلامى ../ على أكتاف صور.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٤٦٧)

وممّا لا مرية فيه أنَّ الشاعر على كنعان يرصد أحداث مجتمعه بعين ذكية حيادية. إذا أمعنا النظر فيما قدّمه الشـاعر فى الشـاهد الشعرى السالف يتضح لنا أنَّه أدان الفساد والخصال الذميمة فى مجتمعه. هذه الظروف المتدهورة والفسـاد العارم الذى استشـرى فى كافة مفاصل المدينة الفاسـدة دفع الشاعر على كنعان نحو الغربة عن وطنه والتشرد من بلدٍ إلى بلد آخر، هارباً من ظلّ ظروف انسانية صعبة ليجد لنفسه متنفساً من الواقع الحاضر. يجد الشـاعر الأمن والاستقرار فى الهروب إلى البلدان النائية الأخرى، حتى لو يؤدى الأمر إلى تجشّمه العناء وتحمّله وعثاء السفر.

٣-١-٤- الحرمان من الماضى الجميل وَالمعاناة اليومية

العــودة إلى أيام الطفولة والماضى المشــرق كانت ومازالــت الهاجس الوحيد عند الشــاعر، وتعتبر من المحاور المهمة فى شــعر على كنعان، لأنَّــه لم ينعم بالعيش فى بلاد الغربة وما تحمل بين طياتها من ضياع للقيم الإنسانية وقسوة الحياة وانهيار المثل العليا. «هناك علاقة وثيقة بين الأدبِ والمجتمع لا تُخفى على أحد، إذ إنَّ الأدب نابع من فكر الشخصيات المبدعة التى تعيش فى المجتمع، حيث يقوم الأديب بإعادة خلق الأحداث الاجتماعيــة فى الأثر الأدبــى للقرَّاء». (گنجيان خنارى وجمشــيديان، ٢٠١٤م: ٥٢)، ولكــن من زاوية أخرى نجد بأَنَّ علاقة الشــاعر على كنعان بالمدينة فى الغربة مازالت علاقة غير حميمية بحيث تعامل معها كأنها عدوه اللدود. صوّر الشاعر واقع مجتمعه المرير ومظاهره القبيحة بالشكل الّذى خلّفه فى مخيلته الشعرية، واصفاً هروبه من حاضرٍ قاس أبعده عن بلده الحبيب وأهله.

«لهاث الريح يخطفنى إلى أرض الطفولةِ/ ثدى أُمى ناشــف .. طار الندى،/ يبســت حليماتُ الندى قبل انحســار الغيمِ/ ... وأبى يحدق فى سماء تشــتهى موتى/ يخوِّضُ فى رماد كاد يبلعه.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٣٧٢)

يدلّ النص الشعرى السابق على عجز الشاعر من أن يقيم جسراً من الحب والمودة بينه وبين هذه البيئة، فلم يجد الشــاعر على كنعان مخرجاً ومنفســاً للأشــجان المنطوية والآلام المكبوتة والمشاعر الدفينة غير الشعر.

مازالت العودة إلى عالم الطفولة والحياة الماضية حلماً لم يتحقق للشاعر، بحيث عجز عن طمســها فى نفسه لأنَّه كان وما يزال يأنس وبشــدة كبيرة إلى بيئتها ولم يستطع أن يحبَّ غيرها، فلم يبقى للشاعر على كنعان من الماضى إلا ذكريات جميلة قد غابت بغيابه عنها. الشاعر لم يســتطع التلائم والانسجام مع الناس فى المجتمع، ويتمنى الهروب من هذه المدينة الفاســدة التى تتســم بالخداع والكذب. ومن هذا المنطلق نجد الماضى رمزاً للانفتاح الأخلاقى والمحبة والألفة وراحة البال والنشــاط والنقاء والسكون والطمأنينة فى شــعر على كنعان، بينما يكون الحاضر مشــحون بالفوضى والعنف والأنانية والكآبة والمكان الذى يشــعر الإنســان بالوحدة والعزلة، والتى ولَّدت داخل الشــاعر نوع من

الصدمة والنفور من واقع مجتمعه.

«ومثلما نطيرُ فى مواسم الطفولة/ على بساطِ الغيم أَو أُرجوحةِ الضياء/ من أرجوان أفقٍ مشتعلٍ فى أَول المدى/ إلى رماد أفقٍ معتكرٍ فى آخرِ المدى/ نودّ لو تَشيلُنا تحت خوافيها ../ نرسمُ فى ترحالنا ألفَ مدارٍ/ ومدار.» (المصدر نفسه: ٣٠٣)

ومما يجدر بالذكر فيما سبق أنَّ الشاعر على كنعان يشعر بعبثية الحياة وضياع الماضى الجميل، ويعلن رفضه لما يدور فى هذه المدينة من رذائل وقبائح، وهذا يعكس مدى تأثره ببيئته وحبّه للقيم الإنسانية وحنينه إلى العودة للوراء.

يتغنى الشاعر بقريته وبأنعامها وصفاءها وبساطتها، ويحنّ قلبه إلى قريته وربوعها الواسعة وحقولها الشاسعة، وذلک عبر تصوير حقول الشاى فى منتجع "إيزو"[١] السياحى. الحقول التى تذكّره بشذى رائحة هذه النباتات المعَطَّرة فى بادية الشام، وذلک ليجد فيما يتصوره من فسيح رحابها متنفساً له، ولكن الذكرى وحدها نصيبه من هذه الطبيعة الخلابة، ليشير من خلالها إلى حاضره التعيس ومأساته. يرتبط الشاعر بوطنه الذى نشأ فيه وترعرع ارتباطاً وثيقاً، ليحيا فى وطنه بروحه، ويحلّق فى أجوائها بخياله، واصفاً مدى حزنه ووحدته ومأساته فى بلاد الاغتراب:

«يرمح الدربُ إلى إيزو/ على زيقِ الخليج/ وحقولُ الشَّاى/ تستدعى أَريجَ الشيحِ/ فى باديةِ الشامِ/ هل الذكرى ضناک الأَبدى؟» (كنعان، ٢٠١٠م: ٥٥٤-٥٥٣)

جاءَت نصوص الشاعر على كنعان الشعرية تعجُّ بسخطه من واقع المجتمع وأوضاعه التّعيسة، ومكابدته للآلام، رافضاً الحياة فيه، وذلک على العكس تماماً مع رؤية أبناء هذا المجتمع الذين يتنعمون بعيشة راضية. عانى الشاعر الكثير من وطأة الحاضر فى كنف الغربة، بحيث ظلّ يلفظ أنفاسه الأخيرة مسترجعاً ماضيه المشرق والمفعم بالنشاط والحياة. يتضجر الشاعر من مجتمعه القاسى الذى أدى إلى تهاويه فى قاع الإخفاق، بحيث مزّقته تعاقب الأحزان والإحباطات والإخفاقات.

«أمس انتصرت على الحياة/ حتى الهواء حبسته طى القوارير الحديد/ واليوم

---

١. . «منتجع سياحى فى شبه الجزيرة الممتدة إلى الجنوب من طوكيو، ولها وقعها المحبب فى الأَدب اليابانى.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٥٥٣)

ينتفض الربيعُ الطفلُ/ من تحت الجليد/ الويل لى!/ عادوا وهم يتنفّسون/ فالخزى، ريح الخزى تجلدنى/ تعرِّينى .. وهم يتنفَّسون.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٤١-٤٠)

يريد الشـــاعر أن يدفن حقّاً هذا الحاضر الأليم ومعاناته فى مقبرة ذكرياته، ليسجل الماضـــى الزاهر فى كتاباته. فإنَّ للأحداث المريرة فى المجتمع وأيضاً الهجران تداعيات كبيرة على الشـــاعر، بحيث أيقظت فى قلبه الحزن العارم وولهه الشـــديد لماضيه وحياته الطفولية التى استطاعت وحدها أن تفتح له قلبها وتحتضنه بكلّ ودّ واعتزاز.

يأمل الشـــاعر فى تشـــييد المدينة المثالية المنشـــودة ومتطلعاً إلى غدٍ مشرق يضمن سعادة وسكينة الناس فى شتى مناحى الحياة، من خلال هذه النبرة الحزينة التى توصف رعب واقع حياته اليومية. لمسقط رأس الشاعر فى شعره نظرة إيجابية ولكن لباقى المدن فى الاغتراب الجانب الســـلبى فى أعماله الشـــعرية، وهذا إنْ دَلّ عَلَى شَىءٍ فإنما يدلّ على الصراع القائم والمحتدم بين البيئتين. إنَّ الشاعر على كنعان فى هذه الحقبة الزمنية التى قضاها فى بلاد الغربة مَرَّ بظروف قاسية ومريرة تختلف عما قضاها فى وطنه، فكان لهذا الواقع المؤلم أثر بالغ فى شعره، بحيث أثقلت الأحزان كاهله وأخذت بخناقه.

«رســـالةٌ حروفها مقطوفةٌ من كوكبِ الطفولة/ كلُّ نعيمٍ خلفها جارٍ بلا حدود/ وكلُّ من يقوى على الولوجِ فى أســـرارها/ مفقود/ لا ترحلى عن شاطئ الأحلامِ/ يا سفينةَ الخلود/ ولتحضنى بدفئكِ الكونى/ قلبى من برودةِ الأيام.» (المصدر نفسه: ٦١٤)

فهذه الصدمة من الأزمات والويلات وتأزم الوضع السياســـى والاجتماعى، جعلت الشـــاعر يعيش قلقاً مستمراً. نظر الشـــاعر للمدينة فى الغربة نظرة الخصم الذى يؤدى بالنهاية إلى مأســـاته ومعاناته، ومن هذا المنطلق حنَّ الشـــاعر إلى عالم طفولته البهيج الذى ضيعه بهذه المدينة الفاسدة.

وكما أشـــار الشـــاعر إلى حاضره وحياته الحزينة الكئيبة والمعاناة التى يدفع ثمنها فى هذه المدينة الفاسدة، بحيث ذاق صنوف الآلام والمرارات التى حرّمته من أن يتمتع بروعـــة الحياة وجمالها؛ وعلى الرغم من الآثار الســـلبية التى يتركها الحزن فى نفســـية الإنسان إلّا أنّ الشاعر لم يقف مكتوف الأيدى أمام هذه التحديات، محاولاً التصدى لها طلباً للحرية المطلقة من هذا السجن المؤبد والجوّ الصاخب.

«تمــلأ الدنيا أراجيــحَ وطيبْ/ فتعلَّقت بغصنٍ أى غصــن!/ وعبرت الباب فى ثوبٍ قشيبْ/ ناسياً قسوةً حرمانى وسجنى.» (كنعان، ٢٠١٠م: ٤٩)

يعتقد الشــاعر على كنعان بــأنَّ الناس فى مجتمعه لم يتــمّ تكريمهم اجتماعياً، بحيث لم تتوفر أى أســباب الســعادة لهم. يقول صاحب كتاب "فارابى فيلســوف الثقافة" بأَنَّ المجتمــع اليوتيوبــى فى الحقيقة هو المجتمع الذى تتحقّق فيه ســبل الســعادة المطلوبة بشــتى أنواعها لدى الشعب. (داورى اردكانى، ١٣٨٢ش: ١٥٥)، تبدّد السعادة والحياة المليئة بالمسرات عند الشاعر شيئاً فشيئاً فى الغربة ساعدت فى أَن تأخذ اليأس والألم والتشاؤم والهموم والأحزان مكانها بالحياة اليومية فى هذه المدينة الفاسدة.

الحقيقة أنَّ موقف الشــاعر ورؤيته الســلبية، ومعاناته، وتشاؤمه تجاه ما يجرى على المجتمع وأحوال الســكان، هو بمثابة استجابة لتحديات زمانه، وبغيةً لما يرومُهُ من خيرٍ وســعادة لأبناء الشــعب، مما يضمن تحريرهم من هذه الملمــات والتهميش الاجتماعى، وما لها من عواقب وخيمة عليهم. فهو مجتمع يسوده الأهوال والاضطرابات، والفوضى، والبلابل التى هدَّت أركانَ العيش فيه، وهَدَمَت كلّ ما يدفَع إلى الخير.

يسعى الشاعر إلى البحث عن اليوتوبيا المنشودة عبر بلورة الديستوبيا ورفضه القاطع للعنف ومعاناة أبناء مجتمعه جراء هذا الواقع المرير، لذا لم يكتف الشاعر بإضفاف مظاهر الديســتوبيا فى نصوصه الشعرية، والتى هى نابعة من صميم مشاكل حاضر مجتمعه، بل يستنكرها ساعياً جعلها جسراً يوصل سكان المدينة إلى المجتمع المثالى والراقى.

«ألعنُ هذا العصر/ ألعنُ نفســى مثلما ألعنُ هذا العصر/ لأَنَّنى ولدتُ فيه/ كالشــاهد الجبان ../ لم أســتطعْ تبديلَ شــىء فيه/ يا وطنَ الإنسان والحضارة/ بكلِّ ما فى القلبِ من غيوم/ وكلِّ ما فى الجوِّ من رياح/ يا وطنى .. أبكيك.» (كنعان، ٢٠١٠م: ١٦٨)

وانطلاقاً من هذا النص الشــعرى نجد بأَنَّ ظاهرة الديســتوبيا فى شــعر على كنعان ناتجة عن مشاعره التى خالجته إزاء قلقه حول استمرار أعمال العنف فى مجتمعه المكتظ بالأزمــات وأيضاً المعاناة اليومية التى هيمنت على حياتــه، موجهاً أصابع الاتهام إلى هذه المدينة الفاســدة. يسمو الشــاعر بالكلمة، ليؤدى من خلال ذلک رسالته الإنسانية الإبداعية فى الشــعر على أكمل وجه. كان الشــاعر فى جميع ســطوره الشعرية اللسان

الناطق الوحيد لآلام وأحزان شعبه الجريح الذى تكبّد فى زمانه الحاضر بشتى أنواع المعاناة والمصائب والخسائر الفادحة، لِيصبَّ الشاعر على هذه الأوضاع المتردية وما حدث من تجاوزات فى مجتمعه والمسببين لها كؤوس غضبه.

٤- النتيجة

الخصائص التى اتضحت من خلال دراستنا على ما تقدّم لتجليات الديستوبيا فى شعر على كنعان، هى كالتالى:

- قد تجلّت ظاهرة الديستوبيا فى أعمال على كنعان الأدبية بشكل لافت للانتباه، سائراً على خُطى القدماء فى الأدب الديستوبى. طرح الشاعر الكثير من القضايا اليومية الهامة التى تدور فى مجتمعه، وبصورة جريئة، بحيث يصعب على معظم الأدباء فى العالم العربى من تداولها علناً، وهذا إنْ دَلّ عَلَى شَىءٍ فإنما يدلّ على جرأة الشاعر وصراحته ومدى معاناته من الفوضى الاجتماعية وواقعه المؤلم. الشاعر على كنعان عانى الكثير من ويلات الزمن، فقد سخّر كلّ موهبته لخدمة المجتمع، ولديه رغبة جامحة فى تجاوز عقبات الواقع المعاش على مسرح الحياة، وحتى لو يؤدى الأمر إلى استنزاف دمه للمطالبة بحقوق جميع المضطهدين فى المجتمع وذلك عن طريق تنظيم الحركات الاحتجاجية، فتتجلى أفكار على كنعان الديستوبية فى جُلّ أسطره الشعرية بنقد حاضره والواقع المروع غير المرغوب فيه الذى يعانيه مجتمعه داخل خضمّ من المشاكل والأزمات.

- معظم أَشعار على كنعان هى مرآة صافية لِخلجات نفسه ومقومات فكره، بحيث يصرخ الشاعر بوجه الساسة الجائرين وأبناء شعبه المتخلفين مُنفثاً عن غضبه من واقع مدينته الفاسدة. حاول الشاعر من خلال تعبيره عن ماضيه المشرق وخصال المدينة المثالية إيصال صورة موجزة إلى المتلقى بشكلٍ أو بآخر عن الديستوبيا ومظاهرها، وَمُتخذاً إياها وسيلة للتنفيس عن آلامه وهمومه فى هذه المدينة الفاسدة. خاض الشاعر على كنعان غمار تجربة الغربة وَذاق المرّ والويل، وما آلت إليه من الآلام والأحزان، لذا أصبحت أعماله الأدبية سجلاً أدبياً لحياته، مشيراً عبرها إلى الأزمات

الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فی هذه المدينة، ومدی الدمار الذی تسببه، بحيث عمّت الفوضی فيها.

المصادر والمراجع

أ- الكتب

اصيل، حجت الله. (١٣٨١ش). آرمان شهر در انديشه ايرانی. ط ٢. طهران: دار نشر نی.

برنيری، ماريا لويزا. (١٩٩٧م). المدينة الفاضلة عبر التاريخ. ترجمة عطيات أبو السعود. ط ٢. الكويت: المجلس الوطنی للثقافة والفنون والآداب.

داد، سيما. (١٣٨٥ش). فرهنگ اصطلاحات ادبی؛ واژه‌نامه مفاهيم و اصطلاحات ادبی فارسی و اروپائی (تطبيقی و توضيحی). ط ٣. طهران: دار نشر مروارید.

داوری اردكانی، رضا. (١٣٨٢ش). فارابی فيلسوف فرهنگ. طهران: دار ساقی للنشر.

عايش، قيصر عبد الفتاح. (٢٠٠٣م). معجم الأدباء من العصر الجاهلی حتی سنة ٢٠٠٢م. ج ٤. ط ١. بيروت: دار الكتب العلمية.

كاپلستون، فردريک. (١٣٦٢ش). تاريخ فلسفه. ترجمة سيدجلال الدين مجتبوی. طهران: مركز انتشارات علمی فرهنگی.

كنعان، علی. (٢٠١٠م). الأعمال الشعرية. ط ١. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

Pearsall Judy. (1999). The New Oxford Dictionnary of English. Editor Patrick - .Hanks. America. Oxford University Press

Taylor & Francis. (2000). Routledge Encylopedia of philosophy. Great Britain.- .Routledge

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

ب- المجلات

پرچگانی، فاطمة. (٢٠١٨م). «الديستوبيا (المدينة الفاسدة) فی الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة فی رواية "أورويل فی الضاحية الجنوبية" لفوزی ذبيان». مجلة إضاءات نقدية فی الأدبين العربی والفارسی. السنة ٨. العدد ٢٩. صص ١٤٩-١٣١.

الحسنی، أحمد عبدالرزاق ناصر. (٢٠١٥م). «ثنائية (اليوتوبيا والديستوبيا) فی الرواية العراقية دراسة سيميائية». مجلة كلية الآداب جامعة بغداد. العدد ١١٢. صص ٢١٠-١٩١

صحرايی، الهام وآخرون. (١٣٩٤). «فراخوانی شخصيت ايرانی شهرزاد در شعر شاعران معاصر عراق». مجلة مطالعات انتقادی ادبيات. جامعة گلستان. السنة ٢. العدد ٧. صص ١٤-١.

گنجيان خناری، علی؛ رضوان جمشيديان. (٢٠١٤م). «رواية "لعنة الأرض" لجلال آل أحمد فی ضوء النقد الاجتماعی». مجلة إضاءات نقدية فی الأدبين العربی والفارسی. السنة ٤. العدد ١٦. صص ٦٨-٥١